الحياة الأدبية فى تونس

للأستاذ محمد الحليوى

« يجب أن يصف أدباء كل قطر من الأقطار الحياة الأدبية فى قطرهم ، ومبلغ قوتها وضعفها ..... لتعاون جميعاً على علاجها ومداواتها ..... »
على الطنطاوى (الرسالة ١٣٦)

الكلام عن الحياة الأدبية فى تونس يشمل الكلام عنها من ناحيتين مختلفتين . فان كان المراد بالحياة الأدبية كثرة المشتغلين بالأدب ، والمهتمين بالحديث عن رجاله ، والمقبلين على مجالسه ونواديه ، والمطالعين لكتبه ومجلاته ، ففى تونس حياة أدبية لا بأس بها . والظاهرة البارزة فى الأوساط المثقفة هى حب الأدب ، والتطلع إلى كل ما يمت اليه بصلة . فالشباب التونسى يصرف هواه وجل نشاطه ومجهوده فى الاشتغال بالأدب ولواحقه ؛ ومجالس الشيوخ والكبراء يغلب عليها الحديث عن الأدب والأدباء ، والميل إلى المطارحات الأدبية ، والمساجلات الشعرية ؛ وكل فكرة جديدة ، أو خبر أدبى ، أو كتاب ناجح تجد له صداه فى كل الأوساط المتعلمة

ولكننا إذا أردنا بالحياة الأدبية الانتاج الأدبى والمجهود الفردى لخدمة الأدب بواسطة التأليف والنشر ، فتونس ليس لها حياة أدبية تليق بمكانتها التاريخية ومركزها الجغرافى فى أفريقية الشمالية . وإنه ليُعيي الباحث أن يدلّ دلالة واضحة ملموسة على القسط الذى ساهمت به تونس فى تكوين هاته النهضة الأدبية المعاصرة فى الشرق العربى ، وأن يبين أن للأدب التونسى ناحية خاصة تميزه ، ومعالم معروفة لا يمكن أن ينكرها مُنكر ، أو يتجاهلها متجاهل

وها نحن أولاء نستعرض بعض مظاهر الحياة الأدبية فى تونس ، ونقول فيها كلمة الحق ، وإن كان من الحقائق ما هو مؤلم

* * *

الشعر فى تونس

هناك فى تونس شعراء كثيرون ، ودواوين شعرية مطبوعة كديوان « خزنه دار » ، وديوان سعيد أبو بكر ، وديوان مصطفى آغه ، ومجموعة للأدب التونسى المعاصر فى أربعة أجزاء جمعها زين العابدين السنوسى صاحب مجلة « العالم الأدبى » ، وترجم فيها لما يزيد على ثلاثين شاعرا ، وانتخب من شعرهم منتخبات مطولة . ولكن الشعر التونسى فى مجموعه لم يبلغ من القوة والابتكار والاستقلال الفكرى والمميزات الفردية ، وظهور الشخصيات القوية ، ما يجعله يقوى على تحمل المقارنة بالشعر العالى أو ينمت بالأدب الرفيع . ومن سوء حظ تونس أن الفرد الوحيد الذى استطاع أن يعلو بشعره إلى مكانة الشعر الراقى ويضاهى به أنبغ شعراء العرب والغرب قد مات فى العام الماضى فى ريعان الشباب ؛ وبكته تونس فى حفلة رائعة اشترك فيها كثير من أدباء الأقطار العربية

والشعر التونسى المعاصر يسيطر عليه تقريباً الشعراء الشيوخ وهم الذين يخصون فنون الشعر القديمة بجل عنايتهم ؛ وشعراء الشباب يغلب على شعرهم الميل الى التجديد فى المعانى والأغراض وحتى الأوزان والأساليب ، ولكن الذى يعاب عليهم هو غلبة تفكير الجرائد ومواضيعها على أدبهم ، وفقر شعرهم من المعانى القوية والصور الشعرية ، واحتياجهم إلى الثقافة العامة القائمة على سعة الاطلاع والاحاطة بتاريخ الحركات الأدبية والفكرية فى مختلف العصور ؛ ويعاب عليهم أيضاً هذا النوع من الأدب الباكى الذليل ، فلا يكاد أحدهم يشدو فى نظم الشعر حتى تراه ينظم فى البؤس وتوابعه ، ويتشاءم من كل شىء فى الحياة ؛ فنحن نقبل هذا النوع من الكهول والشيوخ الذين دخلوا معركة الحياة وتمرسوا بآفاتها ، ولكننا نرفضه من الشباب ، لأن الشباب أمل وعزيمة وحب للكفاح والغلبة

* * *

الحياة الكتابية

فنون الكتابة كثيرة ، فأية كتابة عندنا وأى كتّاب ؟ نقول فى الجواب إنه يوجد عندنا الكاتب الاجتماعى والمؤرخ

والصحفى .... فقد نشر فى تونس فى هاته السنوات الأخيرة كتب بعضها فى التاريخ ككتب الأساتذة حسن حسين عبد الوهاب ، وعثمان الكعاك ، وأحمد توفيق المدنى ؛ وبعضها فى الأدب والاجتماع ، ككتاب أبى القاسم الشابى عن الخيال الشعرى ، وكتاب الطاهر الحداد عن المرأة ، وكتاب محمد المرزوقى عن مسائل من الفن والجمال . وهناك خمس صحف أسبوعية ، وجريدتان يوميتان ، ومجلة أدبية لم يستطع صاحبها أن ينفخ فيها الحياة ، فهى محتضر منذ سنوات ! وعدا ذلك فليس فى تونس من عمل تمثيلاً مشرفاً أدب القصة والمسرح ، وأدب الأطفال ، والأدب القومى ؛ وكذلك الناحية النقدية والعلمية فى الأدب . وتاريخ تونس لما يكتب

فصفة الكاتب عنيت بها مايفهم من لفظها اجمالاً واطلاقا ، أما اذا عنينا بالكاتب رجلاً له نظريات خاصة ، وأفكار فردية ، يخصص حياته لنشرها والدفاع عنها حتى تنتصر ، كلفه ذلك الدفاع ما كلفه ، فهذا عزيز فى الناحية الأدبية . فاذا قلنا مثلاً إن طه حسين كاتب ، فليس معنى ذلك فى مذهب العقل والتاريخ أنه يجيد رصف الجمل وتأليف الكتب ، وانما معناه أنه رجل يفرض فكرته على الناس فرضاً ، ويكتب ما يراه حقاً وإن خالف ما رآه غيره ، ولا يضيره أن يواجه قراءه بغير ما ألفوا سماعه ، ويصدمهم بآراء ليست هى آراءهم التى اقتنعوا بها ؛ وبعبارة أشمل يرفعهم اليه ، ويبعثهم على التفكير والتأمل واعادة النظر فيما ناموا عليه من المبادئ والحقائق ؛ وما يزال بهم حتى يكوّن من أنصار فكرته ومخالفيها مدرسة تنشر تعاليمها وتصادم تعاليم خصومها . فهذا هو الكاتب الذى يحيى الأدب ويجدد الأدب ، وبهذا وحده يكون الكاتب مثقف عقول ، ومغذى عواطف ، وقائد أفكار

أما فى تونس فالقارىء هو الذى يقود الكاتب . فعلى الصحفى أن يصلح مايحب الرأى العام أن يصلح ، ويجتنب ما يغضبه ويهيجه . وعلى الكاتب أن يكتب ما يريد قراؤه ، وأن يتناول من المواضيع ما يسمحون له بتناوله ؛ وحذار أن يكون له رأى خاص يخالف رأيهم — وإذا كتب فى نقد الأدب القديم فالواجب أن تكون كتابته تقديساً لأصحاب ذلك الأدب ، وكلمة الالحاد وما اشتق منها ما تزال رائجة الاستعمال تُلصق بكل من يظهر نوعاً من الاستقلال الفكرى فى الأدب ؛ وجمهور القراء لم يحسن إلى الآن التفريق بين ما هو أدبى وماهو دينى ، فكلّ أديب يقول بالتجديد الأدبى فهو متهم فى عقيدته . فكانت نتيجة هذه الحالة فقر أدبنا من الكتاب ومن كثير من فنون الكتابة

معاهد الثقافة والمؤسسات

وأول مسؤول عن ركود الأدب فى تونس هى معاهده الثقافية ومؤسساته الأدبية ، فانتشار الأدب لا يكون إلا بكثرة القراء ، وعلى قدر نصيبهم من المعرفة والفهم يكون إقبالهم على تتبع الحركة الأدبية وتقويتها بشراء كتبها ومجلاتها . ونحن نريد أن ينتشر الأدب وتقرأ كتبه ونشراته ، لأننا فى حاجة إلى تقويم العقلية التونسية وتثقيف ذهن سائر الطبقات ، وتصحيح المقاييس التى نقيس بها كل شأن من شؤون الحياة ؛ وليس شىء كالأدب يحيى ميت الهمم ويبعث خامل العزائم ويشذّب شاذ الغرائز ؛ وكل مدنية قامت فى التاريخ كانت منبعثة من نهضة أدبية أو مصاحبة لها

فما هو نصيبُ معاهدنا فى هذا العمل وماذا نرجو منها ؟

أما المدارس الابتدائية فلا رجاء فى أبنائها لأن المعلومات العربية التى يخرجون بها من هاته المدارس لا تؤهلهم لقراءة الكتب الجدّية ومطالعة الصحف الراقية ، وهم حين يغادرون المدرسة يرجعون إلى أشغال آبائهم فى القرى والبوادى ، وليس لهم من الثقافة إلا ذلك النزر القليل الذى يمكنهم بعض التمكن من قراءة رسالة أو كتاب عامىّ سخيف من تلك الكتب المملوءة بالخرافات والأوهام

أما المعاهد الثانوية والعالية فهناك جامع الزيتونة الأعظم والمدرسة الصادقية والمدرسة العليا للآداب واللغة العربية . فأما جامع الزيتونة فهو حصن العربية الأشم ، وهو بمثابة الأزهر بمصر ، وخريجوه هم صفوة العلماء والحكام والقضاة والعدول ، وهم الطبقة الوحيدة ذات الثقافة العربية المحضة ؛ وأما المدرسة الصادقية ومدرسة اللغة والآداب العربية ، فان الدراسة تقع فيهما باللسانين ، وربما غلبت فيهما الثقافة الفرنسية على العربية خصوصاً من ناحية الترجمة والعلوم الرياضية ، ومن هاتين المدرستين تخرج جلّ كبار موظفى الادارة الفرنسية ومترجميها ، وعن طريقهما

سافرت البعثات العلمية التي تتكون اليومَ منها نخبة طيبة من الأطباء والمحامين والمهندسين ، ولكن أطباءنا ومحامينا قلما يكتبون أو يؤلفون بالعربية . وكم كنا نود لو أن دكاترتنا كانوا كدكاترة مصر الذين قامت على سواعد أكثرهم نهضة مصر الأدبية والعلمية

أما المؤسسات الأدبية فهناك الجمعية الخلدونية ، وهي أقدم المؤسسات التونسية ، ثم جمعية قدماء تلامذة المدرسة الصادقية ، وأخيراً جمعية الكتاب والمؤلفين — فأما الخلدونية وقدماء الصادقية فأغلب نشاطهما منصرفٌ إلى تنظيم السامرات الأدبية والعلمية ، وإقامة الحفلات لاحياء ذكرى نوابغ الأمة العربية في القديم والحديث ؛ وأما جمعية المؤلفين والكتاب التونسيين فانها افتتحت أعمالها باقامة حفلة ذكرى الشاعر البقري المرحوم أبي القاسم الشابي . ثم لم تفعل بعدها شيئاً إلى الآن خصوصاً وقد علقت عليها آمال ضخام في انتشال البلاد من هذا الركود الأدبي بتوحيد جهود أدبائه وتسهيل نشر كتبهم بواسطة القروض التي تسبقها والدعاية التي تقوم بها للمؤلفات

أسباب ركود الأدب

إذن فأسباب ركود الأدب كثيرة ، ولكن يمكن تلخيصها في سببين :

الأول : قلة القراء في الأوساط الشعبية نظراً للأمية الغالبة على السواد . ثم جهل كثير من الشباب لغته القومية أو نزارة معارفه التي لا تسمح له بالاستفادة من الأدب والصحف الجدية

الثاني : عدم وجود من يأخذ بيد الأديب إذا هو أراد أن ينتج وينشر ، فطبقة القراء القليلة تزهد في كل عمل تونسي ، ولا تُقبل على تأليف تونسي ، كما تقبل على التآليف المصرية والشامية ، والصحف اليومية لا تقوم بأي مجهود لاستكتاب الأدباء ، وحمل القراء على المطالعة الأدبية ، وإذا نشرت شيئاً من الأدب فالأغلب أن يكون من الأدب السهل الرخيص

والخلاصة أن الأدب في تونس لا يعدو كونه هواية من الهوايات ، ولا يوجد الأديب المحترف ، وإن وُجد الصحافي . والمؤلف يقاسي الأمرين من فقدان الناشر والقارىء . وليس هناك من التشجيع للأديب ما يجعله دائب الانتاج والعمل . فلا مكافآت ، ولا جوائز ، ولا مجلات لنشر آرائه ، ولا حرية لمن أراد أن يفكر باستقلال ؛ والأصوات التي ارتفعت في تونس وترقب منها كلُ مخلص أن تكون في يوم من الأيام داويةً في العالم العربي خفتت وصمتت لتكاتف هاته العوامل عليها

رجاء

على أنه لا يسعني أن أختم هاته الكلمة دون أن أنوه بما يبديه الشباب التونسي في هاته المدة الأخيرة من النشاط والحيوية . فهناك جمعيات للشبيبة لا زالت توالي الجهود في إقامة الحفلات المختلفة وإلقاء المسامرات في مختلف المواضيع ، ونشر النشرات التي يرى القارىء من خلال سطورها هاته القلوب الفتية التي تتقد إيماناً بمستقبل الأمة التونسية ، وحباً لأدبها ولغتها القومية . وإنه وإن كان نشاط هاته الجمعيات مقصوراً على المواسم وفي أوساط مخصوصة ، فانا لنرجو أن توفق إلى تعميم هاته الحياة في كامل البلاد بكل وسائل النشر والدعوة ؛ فان الأمة التونسية لفي أشد الحاجة الى حيوية شبابها وعزيمته الصادقة وإيمانه القوي باسترداد مجد تونس الزاهر وعصرها الذهبي

(رادس — تونس) محمد الحبيبي

صدرت الطبعة السادسة من كتاب :

تاريخ الأدب العربي

في جميع عصوره

بقلم الأستاذ أحمد حسن الزيات

وهذه الطبعة تقع في زهاء خمسمائة صفحة من القطع المتوسط ، وتكاد — لما طرأ عليها من الزيادة والتنقيح — تكون مؤلفا جديداً

الثمن ٣٠ قرشا عدا أجرة البريد